وصف له الشعبى استحمقه، وإن قيل له ابن جبير استجهله، وإن قدم عنده النخعى استصغره. ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة أردشير بابكان، وتدبير أنوشروان، واستقامة البلاد لآل ساسان. فإن حذر العيون، وتفقده المسلمون رجع بذكر السنن إلى المعقول ومحكم القرآن إلى المنسوخ، ونفى مالا يدرك بالعيان، وشبه بالشاهد الغائب. ولا يرتضى من الكتب إلا المنطق، ولا يحمد إلا الواقف ولا يستجيد منها إلا السائر.

هذا هو المشهور من أفعالهم، والموصوف من أخلاقهم.

ومن الدليل على ذلك أنه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره، ولا علمه تفسيره، ولا التفقه فى الدين شعاره ولا الحفظ للسنن والآثار عماده. فإن وجد الواحد منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكر به طلاقه ولا المحبة منه حلاوة، وإن آثار الفرد منهم فى السعر فى طلب الحديث والتشاغل بذكر كتب المتفقهين، واستثقله أقرانه واستوخمه آلافه وقضوا عليه بالأدبان فى معيشته، والحرفة فى صناعته، حين حاول ما ليس من طبعه ورام ما ليس من شكله.

قال الزهرى لرجل : أيعجبك الحديث ؟ قال : نعم. قال : أما أنه لا يعجب الفحول من الرجال ولا يبنه إلا أناتهم. ولئن وافق هذا القول من الزهرى فيهم مذهباً إن ذلك لبين فى شمائلهم، مفهوم فى إشاراتهم.

وسئل ثمامة بن أشرس يوماً وقد خرج من عند عمرو بن سعده فقيل له: يا أبا معن ما رأيت من معرفة هذا الرجل، من فهمه ؟ فقال: ما رأيت قوماً.

ص ٤٤ نظرت طبائعهم عن قبول العلوم، وصغرت هممهم عن